وممـا لا ريب فيه أن ذلك الضريح الذى حيل بينه وبين الظهور لن يقل فى قداسته ولا فى استحقاقه للزيارة والتبرك وقضاء الحاجات عن ألف ضريح تتلىء بها الآن مدائن مصر والشام والعراق وسائر بلاد الاسلام ، بل لن يقل عن ألوف الأضرحة التى يتجر بها الدجالون على اختلاف الأديان .

فالحمد لله ! لقد نجا الشرق الاسلامى من معجزة بغير معجزة ، وسلمت بلادنا العامرة بالقديسين من قديس جديد .

عباس محمود العقاد

بعد عشرين ســـــنة ...

للأســـتاذ على الطنطاوى

قلنا : قف بنا لحظة يا قطب . لقد هلكنا من التعب

قال القطب : امّشوا . .

وضغط على (الميم) ومدّ (الشين) مَدّةً ساخر بنا ، وأوسع خطاه فصمتنا وتبعناه مرغمين

وعدنا نمشى فى هذه البرية الواسعة ، وقد انتصف الليـل وغاب القمر ، واحتوانا الظلام بسكونه الموحش وسـواده الطبق ... وثقل علينا هذا الصمت ، فقال القطب : غنّوا ...

وحاولنا أن نغنى كما كنا نغنى فى أول الليـل ، ولـكن التعب والوحشة والنـّعس ، كل أولئك كان يحبس أصواتنا وعـلك ألسنتنا ، فخرج الصوت ضعيفاً متقطعاً ثم هبط حتى اختفى ، ورجعنا إلى الصمت ...

وتجـسّمت وحشتنا ، حتى كانت الجبال البعيدة تظهر لنا فى ظلام الليل كأنها أشباح الرعب ، والأشجار أمثال العفاريت الشواخص ، والسواقى التى كنا نمرّ عليها كان ماؤها يبدو لنا أسودَ يملأ خريرُه القلوب رهبة ... وكذلك أحال الظلام كل ما هو جميل فى الوجود بشعاً مرعباً ...

ولاح لنا من بعيد ضوء يتراقص على حاشية الأفق ، فقال القطب:

— هذه هى (التـكية) !

فسـرّىَ عنا ، وتجددت قوانا ، وعلمنا أنّـا قد بلغنا آخر الرحلة ، ودنا المنزل .

وكان ذلك سنة ١٩٢٥ . وكانت إحدى رحلاتنا مع (القطب) وكنا نقوم بهذه الرحلات قبل أن يعرف فينا نظام الـكشفية وقبل أن يدخل بلدنا ، نقطع فيها ما لا تقطعه كشافة على وجه الأرض ، نسير خمسين كيلا[1] فى اليوم نُصعّـد فى الجبال ، أو نتسلق الصخر ، نخوض ظلام الليل وحرّ الهاجرة ، نحمل أثقالنا على ظهورنا ، نتعرض للوحوش واللصوص والمخاطر ، حتى لم تبق بقعة حول دمشق قريبة أو بعيدة إلا بلغناها ، ولا قرية إلا دخلناها ، ولا عين إلا وردناها ، وكان قائدنا (القطب) ، وليس (القطب) اسمه ، ولـكنه لقب لقبناه به أخذاً من الخرافة الصـوفية المشهورة[2] ... واسمه الشيخ حسين ، وهو خطاط وإمام مسجد ومعلم صبيان متقشف زاهد يقبل من الدنيا كلّ ما جاءته به ، فيأ كل راضياً ما يجد ، ويلبس ما يلقى ، ويعرف ربعَ أهل دمشق ويعرفه نصفُـهم . ومن مزاياه أنه أقدر الناس على السير ، حتى إنه ليستطيع أن يقطع عمره كله بالمشى ...

... وكان قد خرج بنا فجرَ هذا اليوم من دمشق إلى الرَّبوة فدُمَّر ، فالهامة ، فالجُدَيْدَة ، فبَسّيمة ، فالفيجة — أسماء رياض من عرفها من قراء الرسالة علم أن الله لم يخلق فى الأرض أجمل منها ، ومن لم يعرفها فيحفظها فى ذاكرته ، فلعل الله يكتب له السعادة يوماً بزيارة دمشق فيسأل عنها حتى يراها

فلما بلغنا الفيجة وهى على عشرين كيلا من دمشق ، وفيها العين العظيمة التى تسقى دمشق ماء عذباً صفّـاه الله ونقّـاه ، فلم تُصفّـه آلة ولا مصفاة ، أقمنا فيها إلى المساء ، فلما أذّن المغرب صليناه وسرنا على اسم الله ، فمررنا على دَيْر قانون وسوق وادى بردى وتلك القرى ، نسلك قرارة الوادى العميق تارة ، ونركب الجبل تارة أخرى ، وكنا أقوياء فى أول الطريق ، نسير بجد ونشاط ، وكان القمر الوليد يضوّئ لنا الطريق ، فلما مضت ثلاث ساعات من الليـل غاب القمر ، وعمَّ الظلام ، ونال منا التعب ، فما قاربنا التـكية حتى كدنا نسقط إعياء ...

(١) الـكيل على وزن الميل معرب (كيلومتر) .

(٢) وأشهر من تـكلم فيها ونشرها الشعرانى

وشدّ قربُ التكية أعصابنا ، فغنينا أغنية وطنية معروفة ، فلم نسمع إلا صوت الترامواي

فقال القطب : خاف منا الكلاب ، غنوا يا أولاد !

وكانت الثورة السورية قائمة ، وهؤلاء (الكلاب ...) إنما هم الفرنسيون ولهم مركز قوى فى التكية لحماية معامل شركة الكهرباء والترام ، وكانوا يقتلون فى تلك الأيام البرئ وهو فى داره ، فكيف بمن يقدم عليهم وسط الليل منشداً الأناشيد الوطنية؟

واستمر صوت الرشاشات ونحن مستمرون فى إنشادنا وسيرنا فرحين بهذه التسلية الجديدة التى أنقذتنا من ملال الطريق .

وأشهد أن الفرنسيين مجانين ، ولكنهم عقلوا هذه المرة ، لأنهم وجدوا من هو أكثر جنوناً منهم ، وهو نحن ... فوقفوا الضرب ، وأقبل علينا واحد منهم ، فأنار مصباحه ونظر إلينا...

وكان ركبنا مؤلفاً من القطب ، والشيخ شريف ... وهو مدير مدرسة أهلية ، وسلطان الشاى الأخضر فى دمشق ، ومؤلف أناشيد ، وهو أسرع الناس غضباً وأسرعهم رضا ، يشتعل كالبنزين وينطفئ كالبرق ، والشيخ طه ... وهو معلم ولكنه كان ضابطاً فى الجيش قبل أن يكون معلماً ، وأنا ، وسبعة من تلاميذ الشيخ شريف ...

لقد كنا كـ (ركب النميرى) !

فلما رآنا ورأى هذه الهيئات العجيبة ، وهذه الأحمال التى كنا نحملها والتى يعجز عن حملها ثلاثة بغال . . رأى قوماً ليسوا من الثوار ولا من أهل القتال ، فما ذا يكون هؤلاء ، وما ذا يدفعهم إلى السير فى هذه البرية نصف الليل ؟

وسألنا — وكنا نعرف من الفرنسية كلمات — فتكلمنا بها ، وكنا نكرر كلمة (بروموناد) أى نزهة ... فلم يشك الرجل أننا مجانين ، وأدخلنا المخفر وجاء بترجمان فكلمنا ، فلما عرف قصتنا كاد يقضى عجباً ، وسمح لنا بالسير ...

قال القطب : إلى أين نسير ؟ إننا نريد أن ننام هنا !

قال الضابط : هذه منطقة عسكرية . ممنوع !

قال : إذن أعطونا طعاماً ، وقطرة لعينى فإن بها رمداً ، وعلبة كبريت . فأعطوه ما يريد

فلما خرجنا ، قال القطب :

— أرأيتم كيف غزوناهم وأخذنا طعامهم ؟ آه . لو كان معنا سلاح لذبحنا الكلاب ... والآن . لم يبق إلا أن نمشى إلى (بلودان)[1]

وكانت بلودان فى رأس جبل لا نستطيع تسلقه فى أقل من ساعتين ، وبيننا وبين الجبل مسيرة ساعة ، والإعياء والتعس بالغان منا ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ...

ولما بلغنا بلودان كان السحر قد اقترب ، ولم يكن يحسن أن نقرع باب أحد من الفلاحين فى تلك الساعة ، فقصدنا المسجد وجرب القطب مفاتيحه فى الباب فانفتح لنا ، فاستلقينا من التعب على الأرض ، ووضع كلٌّ رجليه تلقاء رجلَىْ الآخر ، والتففنا ببسط الجامع ونمنا ...

ولما جاء المؤذن لأذان الفجر ، فتح الباب ودخل يتعوّذ ، وأوقد عود كبريت ، ونظر فرأى ما هاله ، وما قفّ له شعره ، رأى جنًّا نائمين كل جنّى طوله خمسة أمتار وله رأسان رأس من هنا ورأس من هناك ، ووقف المسكين مكانه وقد ألصقه الرعب به فما يملك أن يريم ، وجاء بعد قليل رجل آخر فقال له :

— ما لك لا تؤذن يا أبا عبده ؟

قال : أ...أ...أ...

وأشار إلينا وعقد الخوف لسانه ، فنظر الآخر فشُده ..

وأحسسنا نحن فقمنا ، وعرف القوم القطب ، فأقبلوا عليه يعاتبونه على ما صنع بهم ...

ونهضنا كما ينهض الجمل نشط من عقال ، وقد وجدنا لهذه النومة القصيرة على الحصير القاسي بعد التعب الشديد ما لا نجده لنوم ليلة كاملة فى البلد على السرير ، ووقفنا للصلاة ، وكان قد اجتمع فيها أهل البلد كلهم لا يتخلف عن الصلاة أحد ، وما أهل البلد ؟ إنهم بشيوخهم وكهولهم وشبانهم لا يعْدون الأربعين ...

فلما سلمنا أخذوا يتسابقون إلى دعوتنا ، فقال القطب :

— القاعدة !

وكانت القاعدة أنه لا يستضيف أحداً ولا يدخل داراً ، ولا يرزأ أحداً شيئاً ، وإنما يقصد النازة والعيون ، وكانوا يعرفون

(١) بلودان على (٥٠) كيلا من دمشق وهي مصيفها وفيها كانت اجتماعات الجامعة العربية

هذه القاعدة فتركوه ، فذهب بنا إلى (عين أبي زاد) ...

ومررنا على القرية فإذا هي قرية صغيرة خاملة فقيرة ، أهلوها على الفطرة النقية ، لا يعرفون الحسد ولا الغش ولا السرقة ، ولم يسمعوا بالقمار ولا بالخمر ، وليس فيهم من يقرب الزنا أو يفكر فيه . والقرية تطلّ على منظر من أعجب مناظر الدنيا ، فهي على رأس جبل تقوم في أسفله (الزبداني) ، وهي القصبة ، وفيها دار الحكومة والقائمقام والقاضي وقائد الدرك ، وأمامها سهل الزبداني كله إلى منبع (بردى) ، وعن يمينها وادي (سرغايا) ، وعن شمالها بُقَّين ومضايا ، ومن أمامها مدخل وادي بردى ... وفيها المياه العذبة ، والعيون الصافية ، وفيها العنب والتين والتفاح الذي لا نظير له ، ولكنها منقطعة عن الدنيا لا يكاد يصعد إليها أحد ، لملوّها وضيق الطريق وصعوبته ، وقلة الدواب ، وكان وجهَ القرية الشيخُ سليمان الرنكوسي وهو رجل ذو مزايا ومناقب ، فمن مناقبه أنه إمام المسجد ، وخطيب الجمعة ، ومعلم الأولاد ، وكاتب الرسائل والعرائض ، وبائع القماش ، ومصلح بوابير الكاز ، ومقسم المواريث ، ومسجل عقود البيع ، وقاضي البلد ... فكأن أهل القرية أسرة واحدة نقية فاضلة ، والشيخ سليمان هو ربها !

وبلغنا العين ، ونصبنا الخيمة التي كنا نحمل أجزاءها مفككة ، وأوقدنا النار ونصبنا القِدْر ، وفتحنا الحقائب فأخرجنا اللحم والخضر ، فطبخنا وأكلنا وشربنا الشاي الأخضر ، ثم جلسنا أمام العين جلسة لو تعبنا أضعاف ذلك التعب لكانت مستحقة له ، معوضة عنه ...

ورأيت الفلاحين يتوافدون على القطب : هذا يأتيه بعشر تفاحات ، وهذا يهدي إليه قبضة من التين اليابس أو الزبيب ، وهذا يحمل إليه كأساً من اللبن ، فكان يقبل منهم ويثيبهم عليه ، بكاكر ملونة ، أو قُضامةً على السكر ، أو لوح صابون ، ورأيت من يأتيه بشيء يأخذ هوضه ثم يقعد لا يذهب ، فلما تكامل عددهم أخرج الشيخ كتاباً من خرجه ، وجعل يقرأ عليهم ويعظهم ، فتسيل دموعهم من خشية الله ...

ومرت السنون على هذه الرحلة حتى نيّفت على العشرين ، وقطعتني الحياة وهمومها ، وأسفاري وعملي في غير ديار الشام ، عن هذه الرحلات ، وباعدت ما بيني وبين (بُلُودان) فلم أرها بعد تلك الزورة ...

... حتى إذا كان هذا الربيع المنصرم ، لقيت (القطب) ، فقال لي : أتذكر تلك الرحلة ؟

قلت : نعم ، أذكرها ولا أنساها

قال : هل لك في مثلها ؟

قلت : قد تغيرت الدنيا ياقطب ، ولم أعد أستطيع أن أمشي ، إن الناس يعرفونني ...

قال : امشِ ...

وشدَّ (الميم) ومدّ (الشين) فأذكرني ليلة التكية ، فشاقتني الذكرى فقبلت ما عرض عليّ ...

... وليسنا مثل ثيابنا تلك ، وجمنا من بقي من أصحابنا ، ومشينا ، فإذا الطرق التي كانت كأنها من جمالها معابرُ الفردوس ومسالك الجنان ، والتي كنا نسير فيها فلا نلقى إلا فلاحين يكرموننا ويحترموننا ، صارت شوارع واسعة لا تنقطع السيارات فيها ساعة ، وكلما مرت بنا سيارة أبطأت في سيرها ونظر من فيها إلينا ، كما ينظرون إلى (عجائب المخلوقات) ، ثم ولت عنا ، ونحن نسمع منها ضحكات النساء الخليعات علينا ، وضحكات شبابٍ هم مثل النساء ، وقذفتْ في وجوهنا غبارها ودخانها ، وما ذنبنا إلا أننا نمشي على أقدامنا في حرّ الشمس ... حتى أن الكشافين كانوا يمرون بنا في سياراتهم ويضحكون هم أيضاً علينا

. ورأينا مرة فرقة كشفية تسير بجانب سيارتها الفارغة مشية عسكرية موزونة كشية حرس هتلر الخاص تماماً : شمال — يمين . واحد — اثنين . وهم ينشدون :

لا تهاب الزمن إن سقانا المحن

في سبيل الوطن ... ...

فداست السيارة على مسمار ، فانفجرت عجلتها ، وكان لها مثل صوت البارود ، فقطع إخواننا النشيد ، وطاروا على وجوههم فلم ترَ ثوانٍ معدودات ، حتى صار أشدهم حماسة على بعد خمسين متراً من (مكان الخطر) ، هؤلاء الذين كانوا يمشون كمشية حرس هتلر الخاص ولا يهابون الزمان ...

فقلت : يا قطب ، أتذكر ليلتنا تلك والرشاشات ؟ ... ألم أقل لك : لقد تغيرت الدنيا ؟ !

ووجدنا الأماكن التي كنا نستريح فيها ، والتي كانت من طهرها كأنها معابد الجمال في الأرض ، صارت قهوات وخمارات

ما فيها لأمثالنا مكان ، فكنا نبيت على الصخر ، وعلى ظهور الجبال ، حتى بلغنا (بلودان) ، فسحنا أعيننا وحسبنا أننا فى حلم ... أهذه بلودان ؟ هذه المدينة العامرة ، ذات الشوارع والقصور ؟ أهؤلاء الشباب الذين يمشون متبخترين بأكمامهم القصيرة ، وشعرهم المرجل المدهن المعطر ، ووجوههم المصقولة ، أهؤلاء هم رجال بلودان ؟ وهؤلاء النساء الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ، أهن نساء بلودان ؟ !

وصارت ثيابنا وهيئتنا شُهرةً [1] لنا ، وصرنا ضحكة القوم ، ولم نجد مكاناً نحط فيه ، فسألنا فدلونا على الفندق

وجئنا الفندق الذى شادته الحكومة بأموال هذه الأمة المسلمة ، لننزل فيه بالأجرة لا صدقة ولا إحساناً ، وكان الفندق الضخم كأنه شعلة واحدة من النور ، وكان فيه تلك الليلة فرقة راقصة بولونية ... ولعلها يهودية ... وقد فتحت قاعات القمار لكل داخل ، وصفّت كؤوس الخمر لكل شارب ، وازّينت الغانيات لكل طالب ، وانتشر اللصوص والنشالون وهم فى ثمين الحلل وغالى الثياب ، وعيث الوزراء فى السهرة عبث الصبيان ، ورقص القضاة مع المجرمين ، وعكف الملعون على موائد القمار ، وأسلم كلٌّ زوجتَه لمن يراقصها ليضم أخرى بين ذراعيه ، وتربع إبليس على المسرح يضحك فرحاً ... !

ولما جئنا ندخل الفندق بثيابنا الوطنية ، ثياب الأمة التى بنى بأموالها هذا الفندق ، منعونا وأخرجونا !

فوقفنا ، وجعلنا نفتش كأنما أضعنا شيئاً نفيساً ... وهل شىء أنفس مما أضعنا ؟

لقد أضعنا المسجد والصلاة والأمانة والطهر والقوة حين أضعنا تلك القرية الحقيرة ... لقد كانت جاهلة ولكنها كانت فاضلة ، وكانت فقيرة ولكنها كانت شريفة ، وكانت بعيدة عن الحضارة ولكنها كانت بعيدة أيضاً عن رذائلها ! !

وأحسست بدمعة سقطت على خدى ، فأخذت بيد (القطب) وصعّدنا فى الجبل ، نريد أن نهرب من هذه الدنيا ، التى ليست دنيانا ... لقد كانت لنا من عشرين سنة دنيا ، وكان لنا فيها أصدقاء ، فماتوا وماتوا ... !

(١) الشهور بالضم ظهور الشىء فى شنعة .

أنا والمصحح :

إذا أنا تركت الكتابة يوماً ، وكسرت هذا القلم ، فليطلب القراء ثأره عند مصححى المجلات ، فهم قاتلوه ، بما يدخلون على آثاره من تصحيفات وتحريفات وتبديلات ، وبما يقوّلون صاحبه أشياء لم يقلها ، وقد رأيت العجب من المصححين ، ولكن أمر مصحح الرسالة أعجب ، فهو يصلح حتى أقول لا يفسد أبداً ، ويفسد حتى أقول لا يصلح أبداً ، فكأنه ملك الحيرة فى يوم بؤسه ونعيمه ، وهذا يوم بؤس له ، ملأ العددين الأخيرين من الرسالة تطبيعات ، وأعجب من هذا أنه يدخل الغلط على مقالاتى فأبعث بالتصويب فلا ينشر .

هذا ، وستمر هذه الكلمة على المصحح الكريم ، فليتكرم بإبقائها على ما هى عليه ، فإذا أبقاها وقرأها القراء فليعلموا أنه رجل أمين منصف ، وإنى أشكره على أمانته وإنصافه . وأرجو أن لا يدرك أن هذا المدح رشوة له لينشر هذه الكلمة .

تصويب :

فى مقالة (قضية سمرقند) فى العدد ٦٨١

أخطاء	فى العمود	من الصفحة	سطر	صوابها
يطربه	١	٧٩٩	٧	يطير به
المصرى	٢	٧٩٩	٨	المضرى
وأن	١	٨٠٠	١٣	وإن
دخل	١	٨٠٠	٢٠	ودخل
للحرب	٢	٨٠١	٣١	الحرب
أرعاد	٢	٨٠٢	٤	إرعاد

وفى مقالة (قصة أب) فى العدد ٦٨٢

الخطأ	عمود	سطر	صفحة	الصواب
يضق	٢	١٢	٨٢٣	يضيق
فيه	٢	١٧	٨٢٣	فيها
ابتلح	١	٢٣	٨٢٤	انبلح
وصاحت :	٢	٢١	٨٢٤	وصاحت .
لله	٢	٣٢	٨٢٥	إلى الله

(دمشق) على الطنطاوى